

الفصل العاشر

التراع بين المسيحية وبين الحكام والمجتمع

(أ) كيف عرقل هذا التراع من انتشار المسيحية - المسئوليات - ما رفضه المسيحيون وما فرضه عليهم الحكام - التعارض بين المسيحية وبين المجتمع - المسيحيون أمام الرأي العام - أهمية الرأي العام بالنسبة إلى المسيحية من الناحية العملية .

(ب) وجهة نظر الحكام تتضح وتثبت خلال القرن الثالث : المسيحية تعد ضرباً من ضروب الفوضوية - الأباطرة الذين اضطهدوا المسيحية - لماذا فشل الاضطهاد - كيف مهد هذا الاضطهاد السبيل للتحويل الحاسم في الدولة وفي المجتمع - الحل الوسط الذي جاء به قسطنطين ومرسوم ميلانو - الأسباب - الشروط المفروضة وما تميزت به من عدم استقرار .

(ج) تنازلات الكنيسة - حدودها - موقف قسطنطين لم يكن بالموقف الذي يمكن التمسك به والثبات عليه - أسباب ذلك - كنيسة الدولة في نهاية القرن الرابع - نهايت الوثنية - مقاومة الطبقات الأرستقراطية أهل الريف وكيف كانت مسيحتهم ظاهرة فحسب .

(١)

تأخر انتشار المسيحية فترة ما ، وبدت الديانة الجديدة وكأنها آخذة في سبيل التدهور بسبب العداوة العنيفة التي أظهرها تجاهها المجتمع الوثني وحكومة روما ، تلك العداوة التي اتخذت لها ثوباً مما نسميه بـ « الاضطهادات »^(١) . وكان لكل من الطرفين في النزاع بين الكنيسة والدولة قسطه من المسؤولية . فسيحيو العهد الأول آمنوا بأن نهاية العالم وشيكة الوقوع ، وتطلعوا بآمالهم إلى يوم القيامة ؛ فقل بطبيعة الحال اهتمامهم بواجبات وهموم الحياة الدنيوية ، وأصبح حب مملكة القدس السماوية في قلوبهم يضر بمصالح الوطن الروماني بصورة واضحة : كانت الخدمة العسكرية مثلاً بغیضة إليهم لأنها تنطوي على فروض وثنية ، ثم لأنهم كرهوا الحرب وما يعانى الناس منها ؛ وبدت لهم مشاركتهم في الخدمة المدنية وكأنها شيء لا جدوى فيه . ثم أصبحوا يرفضون في عناد - على الأخص - الإسهام في كل مظاهر التأييد التي كانت تطلبها حكومة الإمبراطورية احتجاجاً على طابعها الديني الوثني العام . وكان ضميرهم الديني حساساً بالغ الحساسية يضطرهم إلى الرد بـ « عدم الاستطاعة » على الكثير من المتطلبات العادية للحياة المدنية العامة . ولم تكن الدولة الوثنية لتستطيع التسامح إزاء موقف هؤلاء القوم الذين ازداد عددهم يوماً بعد يوم ، والذين أصبحوا

(١) كانت الاضطهادات التي لاقاها المسيحيون موضوع دراسات عديدة . وعلينا أن نشير في هذا الصدد إلى أن كتاب « تاريخ الاضطهادات » ، لمؤلفه بول الأزار ، يفتقد إلى روح النقد العلمى ، وإن كان ذائع الصيت بين الأوساط المسيحية الكاثوليكية .

وكأنهم يتخذون شعاراً لهم من عبارة ترتوليان المشهورة : « إني قد اعترلت المجتمع » .

ولا ندعى هنا أن المؤمنين جميعاً وقفوا من واجبات الحياة العامة ذلك الموقف المتعصب الشديد التعصب الذي وقفه أناس من أمثال ترتوليان ؛ فهذا الداعية العنيف من دعاة المسيحية يعترف في كتاباته بوجود مسيحين بين الجدد وفي وظائف الدولة ؛ غير أن إخلاص هؤلاء الصامت لم يكن ، في نظر الحكام ، ليغفر لذنوب المسيحين المتحمسين ولتصرحاتهم التي لم تتصف بالتعقل ، ثم لمظاهراتهم السافرة وإعلانهم موقفهم الذي اتخذوه في غير ما ترو أو مهاودة ؛ فكانوا العنوان السيئ للجماعة كلها ، لأن الحكام لم يروا غيرهم ولم يواجهوا في المحاكم إلا أنماطاً منهم .

ومن ناحية أخرى ، كانت الدولة متسامحة حقيقة وبصورة واسعة تجاه الديانات غير الرسمية ؛ إلا أنها كانت تضع لهذا التسامح حدوداً تراها ضرورية من أجل الحفاظ على مقومات الحكم . مثال ذلك ما فرضته على سائر تلك الديانات من الاحترام لدين الدولة ؛ بحيث تستطيع أن تطلب من كل مواطن ، في أى مناسبة ، الإبانة عن وطنيته في يمين علني باسم الإمبراطور المؤله ، وبالمشاركة في القرابين المقدسة إلى « مقامه الأعلى » . ثم كانت على حذر شديد من الخرافات التي « تضلل نفوس البشر الضعيفة » . وقد رأت في المسيحية خرافة من هذه الخرافات ، وصفها يلين بأنها « لا صورة لها ولا حدود » ؛ إذ جاءت إلى العالم الروماني من الشرق ، حماسية وصوفية غريبة كل الغرابة عن سائر ما تعود الرومان أن يسموه بالديانات ، لا معابد لها ولا أصنام . وكانت الدولة ، أخيراً ، تتوجس خيفة من الجماعات السرية ؛ وكان القائمون بأمر

الأمن فيها يعلمون تمام العلم أن المسيحيين يجتمعون ليلاً دون طلب الإذن اللازم لذلك .

أما المسيحيون ، فكانوا لا يقبلون أن يعتبر الناس جرماً ما يقومون به من التحايل على كيد الشيطان الذى يتخذ مظاهر الأصنام ، أو مقاومة ما يوحى به ، ومن التضحية بكل شىء فى سبيل الله والاجتماع من أجل تمجيده والصلاة له . وكان ضميرهم يعارض بقوة قاهرة ما تطلبه الدولة من التزامات وما يفرضه القانون من واجبات . وعبر « تروليان » أيضاً عن شعور صفوتهم فى قوله : « ليس الإنسان ملزماً باحترام شريعة ظالمة » . وكان الضمير المسيحى ، بطبيعة الحال ، هو الحكم فى صلاحية كل قانون . ولم تكن الدولة لتقبل مثل هذا التحرر .

وظهر التعارض بين وجهات النظر فى علاقات المسيحيين بالمجتمع مثلما ظهر فى علاقاتهم بالدولة : فهم لم يحترموا لهذا المجتمع ما كان يتمسك به من آراء ثابتة ومن تقاليد ، بل ومن مبادئ . وكان رجل مثل تروليان (الذى عاش فى نهاية القرن الثانى وبداية القرن الثالث) يصور الزواج والتكاثر على أنها ضعف يرقى له أمام الغرائز الجسدية ؛ ولم يكن يجد خيراً إلا فى القيم الروحية ، مهاجماً للملذات الدنيوية ، محطماً للفروق الاجتماعية ، جامعاً بين السيد والعبد فى إيمان واحد ، ملقياً على سائر أوجه هذه الحياة الدنيا بجماع احتقاره .

ولم تخل جماعة المسيحيين بطبيعة الحال من قوم مسلمين ، يبدون الاستعداد الكافى للتوفيق بين عقيدتهم وبين الحياة الاجتماعية العامة .

ولا تنطوى ضلوعهم على حب التضحية والاستشهاد . غير أن عامة الشعب كانت ، على عاداتها ، لا ترى من الكنيسة إلا هؤلاء الأشخاص الذين يفرضون

نفسهم على الجمهور بالضجيج والمعاندة . وكان الوثنيون من الطبقات الممتازة يرون في تصريحاتهم الثورية خطراً على أنفسهم وعلى ما يتمتعون به من امتيازات .

ولهذا نرى الدولة والمجتمع على حد سواء لا يستطيعان إدراكاً لما انطوى عليه التعصب المسيحي من سمو ، فيشعران تجاهه بالغضب الشديد ، ويذهب الشعب إلى إظهار كراهيته العنيفة فيلقى على طائفة المسيحيين بكل ما اعتاد أن يلقيه على اليهود من مسبة ، على حين يعمل أصحاب السلطان على اضطهادها . وفي نهاية القرن الثاني أصبحت المشكلة في وضع لا يمكن فيه الوصول إلى حل لها إلا بالقضاء على أحد طرفيها . وبدأت المسيحية حقيقة وكأنها لا تستطيع دفاعاً أمام هجمات السلطات الحاكمة بكل ما يدفعا ويدعما من رأى عام يكاد يكون ممثلاً لجميع فئات الشعب : فالمتقفون كانوا يحترقون المسيحيين ، سواء رأوا فيهم يهوداً منحرفين أنكرتهم معابدهم ، أو أصحاب عقيدة لا تستحق تحمل مشقة دراستها . وعامة الناس كانوا يكرهونهم لغرابة أسلوب حياتهم ولبشاعة ما أشيع عن اجتماعاتهم من أخبار^(١) .

وكانت هذه الكراهية التي اتخذت صوراً عنيفة السبب الأول الأساسى للاضطهادات . وكانت السلطات تتدخل لتهدئة الشهب ولإرضاء عواطف الجماهير العمياء ، فتقدم للمحاكمة أناس لم تكن لهم بهم بأمرهم لولا ذلك حيث كانت تعلم تمام العلم أن خطرهم ليس بذى بال ، وأن تعصيم الدين لا تصحبه طقوس دموية ولا فضائح خلقية كالتى تنسبها إليهم الإشاعات المهولة ، وإن

(١) كان أصحاب النيات السيئة يلقون عليهم بالتهم التى وجهت من قبل إلى اليهودية : من التضحية بالأطفال ومن اجتماعات سرية تهدف إلى التحلل الخلع وتصاحبها أعمال مشينة مقرزة .

كانوا يستحقون اللوم والتأنيب على هذا التعصب . غير أن رفض المسيحيين إقامة الشعائر « باسم ألوهية الإمبراطور » وامتناعهم عن تمجيد صورته بإحراق البخور أمامها أدبياً إلى اتهامهم بالتآمر عليه ، وهو اتهام كان الحكم فيه ، إذا ثبت : القتل . لذلك نقرأ عن بعض الشهداء خلال القرن الثاني ، وخاصة في آسيا الصغرى في عهد تراجان ، وفي مدينة ليون تحت حكم مارك أوريل عام ١٧٦ (١) .

(ب)

ولم تتنبه الدولة كل التنبه إلى الخطر الاجتماعى الذى تشكله المسيحية إلا خلال القرن الثالث . ولكنها صارت تنظر إليها عندئذ على أنها نوع من الفوضوية . ولقد ظهرت أعنف أنواع العداوة للكنائس المسيحية لدى أحكم الأباطرة وأكثرهم إخلاصاً لواجبات منصبهم ، أى - حسب التعبير الحديث - أكثرهم وطنية . فنجد رجالاً من أمثال : ديس ، وفاليريان ، وجالير ، وديو كليسيان ، يعقدون النية الصريحة ، في النصف الثانى من ذلك القرن ، على القضاء قضاء مبرماً على الكنيسة والإكليروس وكل أثر للدين الجديد ، فيحملون الناس على الارتداد عنه ، مستخدمين التعذيب أو التهديد به . ولم يتورعوا في سبيل تحقيق أهدافهم عن أقسى وسائل العنف ، بل عن القتل في كثير من الأحيان . وكانت هناك تهم مدنية عديدة توجه في آن واحد إلى المؤمنين لتحويل الأمر عليهم نذكر منها : الانتساب إلى دين غير مشروع ، والانتماء للجماعات

(١) وإنا لنترك جانباً ما سمي به اضطهادات نيرون ، إذ يبدو أنها لم تكن سوى نوع استثنائى من استخدام عواطف الجماهير لتحويل شبهة إحراق روما ، عام ٦٤ ، عن الإمبراطور .

سرية ، والتآمر على الحاكم ، ورفض إطاعة الأوامر - إن كانوا جنوداً - ،
والتهرب من واجبات الحياة العامة والخاصة ، بل ممارسة السحر . وعلى أى
حال ، فإن سائر التهم كانت تتميز بقابليتها للتلاشى التام عندما يعلن المتهم
المسيحي تخليه عن عقيدته . وهذا يدل دلالة صريحة على أن الغرض من كل
الإجراءات القضائية لم يكن فى الواقع سوى القضاء على الديانة المسيحية ذاتها
ولا شىء غيرها . وقد ظن البعض أن هذه الديانة حرمت بقانون خاص منذ
عهد نبيون تحريماً قطعياً لا لبس فيه ؛ وثار جدل حول ذلك . ولكن الأمر لا
يزال فى حاجة إلى الدليل الشافى ، وإن كنا لا نستبعد إمكان وقوعه . وفى
الحقيقة ، كانت الإجراءات تسير وكأن الاعتراف باعتراف المسيحية يفترض فى
حد ذاته جرائم يعاقب عليها بالقتل . وكانت الأساليب القضائية لدى الرومان
تتصف على وجه عام بالقسوة . وبلغت فى ذلك أبعد حد بالنسبة إلى قضايا
المسيحية ، لأن القضاة كانت لهم اليد المطلقة فى تقدير العقاب على من ثبتت
عليه تهمة التآمر ضد الحاكم . وقد استخدمت أكثر وسائل التعذيب وحشية
لحث المسيحيين على الارتداد . وكان لمزاج القضاة الشخصى بطبيعة الحال أثره
فى تخفيف ألوان التعذيب أو على العكس ، فى الزيادة من عنفها .

ولحسن حظ المسيحيين ، اتصفت مجهودات الحكام ضدهم دائماً بعدم
التناسق وبالتردد فى بعض الأحيان ؛ ولم تكن شاملة لكل أنحاء الإمبراطورية ،
حتى فى أحلك أيام عهد ديوكليسيان ؛ وكذلك لم تظل الفترات التى اشتدت
فيها ؛ بحيث استطاعت الكنيسة دائماً أن تلم شعناً على أعقاب كل محنة من المحن
التي مرت بها . وكان للاضطهاد ولا شك آثاره التى تجلت فى كثرة الشهداء ،
بين صفوف الجماهير المسيحية المؤمنة لم يحقق إلا ضرباً من الردة المؤقتة ، وكان

ينتهى أحياناً إلى حماس ديني ينتشر بين الناس . وكثيراً ما ترددت كلمة « ترتوليان » المشهورة التي رمى بها تحدياً في وجه المضطهدين : « بذور المسيحية في دم الشهداء المراق » وقد تحققت هذه النبوءة في الواقع ، وإن سير الشهداء التي حفظت حتى عصرنا هذا لتصور لنا حالات كثيرة غريبة من التحمس الديني الجماعي . وكانت الكنيسة وعلى الأخص في الفترات التي تتخلل أزماتها ، تستغل في نشر دعوتها مفهوم استشهاد الشهداء من بينها .

وفي بداية القرن الرابع ، عقب فشل الاضطهادات التي قام بها ديوكليسيان ، استطاعت الدولة أن تدرك أن المسيحيين أصبحوا كثرة لا جدوى للعنف في القضاء عليها . ومن ناحية أخرى كانت المشكلة - أن بحثت بحثاً صحيحاً - قد اتخذت وضعاً يختلف في نظر هذه الدولة عن وضعها خلال القرن الثاني . ذلك أن المسيحية لم تعد في هذا العصر دين صغار الناس والطبقات الدنيا من المجتمع : فلقد انضم إليها أشخاص من مختلف الطوائف والمستويات الاجتماعية . وبازدياد جاهل المؤمنين نشأ نوع من التوازن المطمئن في رحاب الكنيسة ؛ إذ كف أعضاؤها عن ترقب نهاية العالم بين نهارهم وليلهم ؛ وأصبحوا يطوعون أنفسهم على قبول العادات بل الآراء الشائعة ؛ ودخلوا أفواجاً في الجيش وفي الوظائف العامة ، دون أن يعارض الإكليروس في ذلك . ورأى الناس أن الخلق والصبر المسيحيان يدعان من سائر المبادئ الاجتماعية . وقبل كل هذا ، كانت جماعة المسيحيين تظهر للدولة في صورة تسر الناظرين ، صورة الهيئة الموحدة المنتظمة ، التي يقودها رؤساء ذوو نفوذ مطلق ، ويتمثل فيها النظام المؤسس على حكومة معتمدة منسقة ، كما تظهر لديها الروح السياسية . وأخيراً ، فقد تلاشت شيئاً فشيئاً الآراء المسبقة التي شاعت بين العامة خلال

القرنين الأول والثاني ضد الحياة المسيحية ، بعد أن اتسعت الكنيسة - بفضل عهود التسامح - فأصبحت مضطرة أكثر من ذي قبل إلى أن تحيا جوانبه من حياتها في وضوح النهار .
وأصبح من المحتمل بعد ذلك أن يفكر الناس في سبل التوفيق بين أطراف التزاع .

وهيأت الظروف الحل الوسط ، كما ساعدت على الإسراع به : فقد انتهى الأمر بالإمبراطور جالير - وكان أشد المضطهدين للمسيحية حماساً - عام ٣١١ ، أن تكشف له عقم جهوده ، فاضطر إلى التراجع أمام العقبات التي أثارها لحكمه عناد الكنيسة الهائل ، واستسلم لفكرة التسامح مع المسحيين ، ثم مات بعد ذلك بفترة قصيرة . ورأى المسحيون - وكانوا على حق فيما رأوا - أن تصريحه بالتسامح معهم كان إعلاناً لانتصار جماعتهم . ثم أصبح موته مجالاً لتنافس عدد كبير من طالبي الحكم الذين حاول كل منهم استرضاء الأنصار وكسب أكبر قدر من التأييد بين طوائف الشعب المختلفة . وكانت تلك فرصة ذهبية للكنيسة تستطيع أن تبيع تأييدها ، معتمدة على ما تملكه من قوى وعلى عالميتها التي تجعل منها حليفاً يعترف به كل طالب للحكم . وكان أحد المتنافسين على العرش ، وهو قسطنطين ، رجلاً موثقاً به لديها ، بل رجلاً سبق له تقديم الدلائل على نيته الحسنة تجاه المسيحية . ولم يكن قسطنطين قد تحول بعد إلى المسيحية . غير أنه كان ذا فكر تأليني واسع الآفاق ؛ وكان - مثله في ذلك مثل أبيه قسطنطين كلوروس الذي يروى أنه تجاهل ، خلال ولايته بلاد الجول ، آخر قوانين الاضطهاد - كان يوفق في رحاب ضميره بين احترامه لدين الأجداد العتيق وبين خوفه من إله المسحيين . ثم كان ، بالإضافة إلى ذلك ، يصل

الكثير من القسس الذين اعتادوا التردد على أبيه ، ويدرك مدى استعدادهم لموازرة الحكام ، ويعرف تمام المعرفة أنهم ليسوا بالذين يرفضون - في الواقع العملي - التنازل للدولة عن أهم ما تطلب منهم التنازل عنه في سبيل الحفاظ على مقومات الحكم ، وإن تمسكوا في قوة بعد ذلك بالمبادئ التي أنشئت عليها المسيحية القديمة . ولاحظ أن الاضطهادات لم تفشل فحسب ، وإنما أدت إلى اضطراب خطير في الحياة العامة : فالعداوة التي أظهرها الشعب في سابق العهود تجاه المسيحيين لم تعد بذات موضوع بعد أن تكاثروا وتعارفوا بالمجتمع وأصبحوا يعيشون عيشة الناس جميعاً . وعلم بثاقب فكره أن الكنيسة تشكل قوة نشطة غاية في النشاط ، وأن سائر الحكام الذين قاوموها قد وقعوا في شر أعماهم . وأخيراً ، فقد نعى إليه أن منافسه « ماكسانس » كان يدعم قوى جنده الوافر العدد الشديد البأس بتأييد سائر الآلهة الوثنية الذين أقام لهم الصلوات وذبح لهم الأضاحي ؛ بل نعى إليه أيضاً أن هذا الأمير نفسه كان يستعين بالسحر والسحرة .

فلم يبق لقسطنطين إلا أن يستعين بالمسيح .

ولعل الرغبات التي صبت إليها نفسه والآمال التي عقدتها قد تجسمت له جميعاً في صورة رؤى أو تهوآت ، تحددت معالمها بعد ذلك عندما أراد روايتها للناس . وعلى أى حال ، فقد انتصر على منافسيه ، وظن أن في انتصاره فضلاً للمسيح . واجتمع له من عرفان الجميل والإيمان وحسن التدبير السياسى ما أوحى إليه عام ٣١٣ مرسوم ميلانو ، ذلك المرسوم الذى أفسح مكاناً لإلهه المسيحيين بين آلهة الدولة المعترف بهم ، والذى أراد أن يجعل جميع الأديان متساوية في الدولة ، على أساس حرية الضمير . غير أن الكنيسة ، في الواقع ،

لم تكن لترضى بمثل هذا الحل ، ولم تكن الدولة لتستطيع الصمود على موقفها الذى أرادته لها قسطنطين بمرسوم ميلانو .

(ح)

وكانت الكنيسة المسيحية قد اضطرت ، بحكم تطور الظروف وبحكم شعورها العملى بواقع الحياة ، إلى التنازل عن شىء من تعصبها وحزمها . أمام متطلبات المجتمع . غير أنها لم تتنكر فى سبيل ذلك لمبادئها : فقد كانت تظن نفسها مودعاً للحقيقة الإلهية وتتنظر إلى كل وثنى وكأنه عميل للشيطان . لذلك بدت لها فكرة المساواة مع الوثنية مسبة ليس بعدها مسبة ، ولم تخضع لها إلا مضطرة كارهة . وعلى أى حال ، فلم يكن هناك داع يدعوها إلى أن تكف عما دأبت عليه من امتصاص لباب العقائد الوثنية وإفراغها منه ، مادامت تجدد فى ذلك صلاح أمرها . وكانت الدولة من ناحيتها لا تستطيع التخلص من التقليد القديم الذى يفرض الارتباط بين الوطن وبين الدين . وكذلك كان الصالح العام يبدو وكأنه يستلزم سيطرة الحكومة التامة على الخلافات التى لابد لها من أن تنشأ عن تنازع الأديان ، وأن يكون عدم تحيزها مرتبطاً بجياد مطلق . غير أن الحكام لم يكونوا محايدين ، بل لم تلبث قوى المسيحية ، التى ضاعفها الانتصار ، أن جرفتهم فى تيارها وملكت عليهم أمورها ، وأغراهم رجال الاكليروس بالتدخل فى شئون الكنيسة الخاصة رغم معارضتهم بعض المعارضة ، وحصلوا منهم على امتيازات عديدة ، وأشركوهم فى الاهتمام بنجاح دعوتهم .

ومنذ نهاية عهد قسطنطين أصبح من المحتمل وقوع الاتحاد بين الكنيسة

والدولة ، وتغلب المسيحية التام على الوثنية ، والقضاء على الثانية برضاء الدولة ، بل بمساعدتها إن اقتضته الظروف ذلك . إلا أن هذا الأمر الذى تم تحقيقه خلال القرن الرابع ، تأخرت بعض مراحلها : ولم يكن السبب فى ذلك راجعاً إلى الكنيسة التى لم تلبث أن تعدت وجوب معاونة الدولة لها فى معركتها ضد البدع والوثنية ، غير مدركة أنها كانت تدفع بنفسها إلى طريق الخضوع هى الأخرى لسلطان الحاكمين المطلق ؛ ولكن التأخر أتى من تولى بعض الأباطرة - أمثال جوليان الذى كره المسيحية ، أو فالنتينيان الذى أراد فى إخلاص حفظ التوازن بين المسيحية وبين الأديان الأخرى - فقاوموا تيارها المندفِع . وفى عهد تيودوز وصلت المسيحية إلى نهاية الشوط من أغراضها ، إذ أصبحت دين الدولة الوحيد ، وذلك بفضل جهود القديس أمبرواز أسقف ميلانو وهو أول رجل عرفته الكنيسة^(١) .

ولا شك أن الوثنية لم تتلاش دفعة واحدة ، ولكنها لم تظهر سوى مقاومة هزيلة غير منسقة أمام هجمات الكنيسة المتوالية فى انتظام ، وأمام الحماس الصاخب لدى بعض الأساقفة والقسس الذين خصصوا كل حياتهم لمطاردتها أنى وجدت . وضعف أمر الوثنية لأنها فقدت تأييد الحاكمين فافتقرت إلى القيادة الموحدة وتشتت أنصارها فرقاً اختصت كل واحدة منها بعبادة معينة ؛ ثم صنعت أيضاً ، وعلى الأخص ، لأن أكثر أنصارها عناداً كانوا يختلفون فى نظرتهم إليها اختلافاً كبيراً فى غالب الأحيان ، فلا يشعرون بروح التضامن فيما بينهم عند محاولة الدفاع عنها .

وكانت الطبقات الأرستقراطية فى المدن الرومانية القديمة ، وعلى الأخص

(١) انظر كتاب بوايه : « نهاية الوثنية » ، المطبوع بباريس عام ١٨٩٤ فى جزأين .

روما نفسها ، تتعلق بالشعائر العملية من أديانها أكثر من تعلقها بالمعتقدات ذاتها ، معتبرة أن تلك الشعائر عنصر من عناصر التقاليد العائلية الموروثة لا يمكن فصله عنها . ولم يكن الإعجاب بماضى الوطن واحترامه ليقعا حقيقة إلا فى الإطار نفسه الذى شاهد وقائع هذا الماضى الجيد . وكانت هاتان العاطفتان تشكلان نوعاً من الديانات القوية ، إذ كانتا مرتبطتين بشرف النسب وشرف سلالة أبطال العهود الماضية ؛ ثم كانتا ، فى حد ذاتهما عاطفتين جديرتين بالتقدير ، ولا يمكن النيل منها مباشرة . هكذا مثلاً كنا نرى أميراً مثل توكسوسوس ، الذى تزوج من باولا ، يؤمن بأنه يجب عليه التمسك بوثنيته لزعمه الانتساب إلى إينوس جد الرومان .

وكانت جوانح الكثير من هؤلاء الأرسقراطيين تنطوى على عقيدة تبلغ من العمق والإخلاص مبلغاً بعيداً . وقد عبر عنها أحدهم ، وهو المحافظ سيماك ، فى تقرير له يطلب به ، عام ٣٨٤ ، إعادة إقامة تمثال قديم لآلهة النصر كان الإمبراطور جراسان رفعه فى العام السابق من قاعة اجتماعات مجلس الشورى الرومانى . وتلك العقيدة هى القائلة بأنه من الخير للناس عدم التنكر لتقاليد دينية أثبت الزمن فاعليتها . وكان سيماك يشرح فى تقريره المذكور كيف عاشت الجمهورية حياة خصب وازدهار فى ظل آلهة الأجداد ؛ ثم كيف طرأت عليها الفتن والمحن وتهدتها المخاطر عندما ضعف إيمان الناس بآلهة وطنهم . وهذا برهان ضعيف المنطق ولا شك ، إلا أنه كان برهاناً عاطفياً لا يحتاج إلى قوة المنطق ليقنع الناس . فلما استولى الأريك على روما عام ٤١٠ ، ارتفعت من صفوف الوثنيين الذين حافظوا على قوميتهم صرخة قوية ضد المسيحية ؛ وحاول القديس أغوستين بكل جهده أن يهدئ من آثار تلك الثورة ، وكتب فى سبيل ذلك

مؤلفه المعروف « مدينة الله » .

ولنصف هنا أن المبدأ الأصل في المسيحية ، مبدأ المساواة ، لم يكن ، مهما اتخذ من حيلة في مراحل تطبيقه ، لم يكن ليغرى في قليل أو كثير رجالاً حافظوا على شيء من الاعتداد القديم بـ « العائلات » المؤصلة الكبيرة ؛ وكانت إطاعة الأسقف « الذي قد يأتي من أدنى طبقات الناس » ، بالنسبة إليهم ، أمراً عجباً .

غير أن هذه المقاومة انهارت شيئاً فشيئاً لأسباب عدة ، منها : أن طوائف الأرستقراطية . وأعنى بذلك أنها كانت تظهر إعجاباً ، تتغلب فيه أمام تنكر الحاكمين المترابدين لأصحابها ؛ وأن الإيمان بالتقاليد الموروثة أيسر انهماكاً في النهاية من العقيدة الدينية الحقيقية - ولم تعد مثل هذه العقيدة الدينية الوثنية توجد لدى هؤلاء الأرستقراطيين إلا بصفة استثنائية^(١) ؛ ثم إن محن الدهر ، وخاصة خلال القرن الخامس ، دعت بالكثير منهم إلى حياة الزهد ، تلك الحياة التي تتفق كل الاتفاق مع المسيحية وإن لم تختص بها ، والتي ازدهرت ونمت خلال ذلك العصر بالذات في صورة الترهّب ؛ وأخيراً : فإن السيدات من طبقة النبلاء لم يلبثن أن جذبتن إليها روح التصوف والزهد التي شرحها لهن رهبان امتازوا بالحماس وحسن الحديث . وإنا لنجد أسمى الأمثلة من المسيحيين بروما ، حوالي نهاية القرن الرابع ، في شخصيات : ميلاني ، وياولا وبناتهما ؛ وكن من صفوة سيدات المجتمع الرفيع ، دفعهن إيمانهن الملتب إلى الابتعاد عن

(١) وإنا لنرى أن أجدر هذه الاستثناءات بالاهتمام هو المثل الذي تعرضه علينا شخصية بريكستاتوس ، وكان موظفاً من كبار الموظفين خلال النصف الثاني من القرن الذي نتحدث عنه ، وعالمًا مقتنئاً بعلم اللاهوت ، وقسا مخلصاً لعبادات متعددة .

هذه الحياة الدنيا ليعشن حياة الزهد ثم ليرحلن في النهاية إلى فلسطين ، الأولى برفقة الراهب روفين ، والأخريات يصحبهن الراهب جيروم .

وبالإضافة إلى أرستقراطية الدم ، كانت هناك أرستقراطية الفكر التي رفضت رفضاً طال أمده أن تنضم إلى المسيحية ، بل تظاهرت بتجاهلها لهذا الدين في كثير من الأحيان . وكان الإيمان بالتراث الهيليني يحل لديها محل التقاليد العائلية التي اعتمدت عليها الطائفة الأولى من الطوائف الأرستقراطية ، إن لم تنتظم في حزب سياسي ، فلا قوة لها العاطفية على الروح الجمالية ، بالأدب والفكر اليوناني . ولما كانت الثقافة الهيلينية في الواقع مشربة تماماً بالوثنية ، فلا غرو أن بدت لهم مرتبطة ارتباطاً لا انفصام له بالاحترام التقليدي للأساطير القديمة وآلهة الأجداد . وعلى أي حال فإن الفلسفة الأفلاطونية الجديدة كانت قد تطورت - تحت تأثير بورفير وجاميليك على الأخص - إلى نوع من التأليف الواسع النطاق ، تتجاوز فيه الميتافيزيقا مع علم اللاهوت وتعاليم « الأسرار » ، فيفسر للفكر جميع الأساليب اللازمة لتفسير الأساطير أو الإعلاء من مفهوم الآلهة . وإن « الأسرار » نفسها ، التي لم تنقرض العبادات الخاصة بها ، قد أضفت على هذا التأليف المتسع الأبعاد عاطفيتها الحسية وآمالها وسلواها . غير أن وفرة العناصر الخصبية تؤدي في بعض الأحيان إلى الخسران عندما ينوء كاهل الإنسان بكل تلك المفاهيم فلا يستطيع التمتع بها إن لم يسيطر عليها . وفي حالتنا هذه : اختلط الأمر على الناس فلم يعودوا يميزون بين العدد العديد من التصورات ، والعقائد والنظريات ، والرموز ، والعبادات العملية ، والتقاليد ، ولم يقدروا على جمعها في دين واحد صحيح . وقد حاول البعض ذلك ، مثل الإمبراطور جوليان ، فلم يصلوا إلا إلى ضرب من ضروب التقوى الشاملة ، لا

نشك في إخلاصهم لها ، ولكن لا مناص لنا من وصفها بالغموض والإبهام
وبأنها كانت تقوى شخصية فحسب لا يمكن القيام بنشرها بين الناس ، حيث
كان كل فرد يختار من المادة الدينية المتراكمة أمامه ما يناسب مزاجه ، ليصنع
منه الدين الذي يراه . وأقصى ما وصل إليه الأمر كان إنشاء «مدارس»
فلسفية . ولكن تلك المدارس لم يكن لها من الانسجام ولا من التهاب الإيمان
المنتشر ما كان للكنايس المسيحية . لذلك لم يلق الإمبراطور جوليان أى قسط من
النجاح عندما حاول خلال عهده القصير (من عام ٣٦٠ الى عام ٣٦٣) ، أن
يجي العبادات القديمة .

وكان «المرتد» (أى جوليان) ، تقياً مخلصاً لتقواه ، وهيلينياً متعصباً
للتراث اليونانى ، ولكنه كان بعد ذلك فيلسوفاً غامض الفكر ، لا تستطيع
نظرياته التأليفية أن تفرض نفسها كعقيدة قوية ، وهى التى جمعت من أشنات
لا انسجام بينها حول عقيدة نأليه الشمس باعتبارها مركز الكون . وقد عبر بنفسه
في حماس دافق وفي شىء كثير من البراعة الفكرية عن كراهيته العنيفة
لـ «الناصرين» . إلا أن روحه السفسطائية كانت قاصرة عن لم شعث معتقداته
في صورة يستطيع بها القضاء على التفكير المسيحى ؛ وكذلك كان تدبيره
السياسى قاصراً ، برغم جهوده المتعددة ، عن استخلاص كنيسة كبرى وهيئة
إكليروس قوية من بين أشنات رجال الدين والعبادات المتباينة فى كل تلك
الديانات التى أراد توحيدها ؛ بل اضطرت الظروف إلى محاولة تأسى خطى
المسيحية ، ولكنه لم يبلغ فى ذلك شوطاً بعيداً ؛ إذ كانت ديانة المسيح فى ذلك
الحين قد انتهت من تأليف جميع العواطف الدينية الحية والتقاليد التى
تفترضها ، وأصبحت هى المعبرة الكبرى عنها . لذلك يمكننا القول بأن محاولة

جولييان قامت في زمن غير مناسب لها ، وأنها لم تتصف بالذكاء ، وإن صاحبها الإخلاص فجعلها جديرة بالتقدير . وقد تظاهر موظفو الإمبراطورية باحترام اقتراحات الحاكم الذي كان يشكو قلة إخلاصهم . أما المسيحيون فقد صمدوا له وتمسكوا بدينهم . ولكن الوقت لم يسمح لجولييان بالرجوع إلى وسائل القسر والقمع التي استخدمها ديوكليسيان ، ولا نشك أيضاً في أنه كان عازفاً عن تلك الوسائل . لذلك لم يصب الكنيسة منه سوى بعض مضايقات غير ذات شأن ، وإن لم يقتصد رجالها في إظهار كراهيتهم له والحمل عليه في عنف عنيف .

وإننا لنرى الثقافة الهيلينية تضعف يوماً بعد يوم ، إذ لم تعد تنتج للناس إنتاجها السابق القوي ، وأصبحت تعيش على الماضي ؛ ثم لأن العقيدة المسيحية راحت تمتص في صبر كل جوهر ظل حياً للفكر اليوناني . وكلما ازدادت هذه الثقافة ضعفاً ، كلما تلاشت مقاومة المفكرين فأقبلوا على اعتناق المسيحية . وكان جدلهم فيها من قبل ، ذلك الجدل الذي لم يهتم بأمره سوى أصحاب الثقافات الرفيعة ، يلجأ مضطراً إلى الأساليب الهادئة حتى لا يثير غضب السلطات الحاكمة ؛ وكان لا جدوى فيه أمام « وباء » الإيمان المنتشر ومدافعة المسيحيين المتعددة الجوانب في توثبها الدائم . وظهرت ، خلال القرن الرابع والقرن الخامس ، مؤلفات جدلية لتدعيم المسيحية لا حصر لها تهدف إلى هدم كل ما يأتيه أصحاب الوثنية من برهان . وإننا لا نجد بين طياتها براهين أقوى أو أضعف من تلك التي قدمها المشركون ، إلا أنها امتازت بتجنب الوقوع في مواقف التخلف ، وبمسيرة ظروف العصر ومقتضياته : فقد زعم المسيحيون المحافظة على كل ما يجدر المحافظة عليه من تراث الماضي في سائر المجالات ، ولكنهم بعد ذلك وضعوا هذا التراث في إطار التيار الديني الأكبر والعاطفة

الإيمانية العامة ، وهما التيار والعاطفة اللذان لم يكن لهما بد من أن يجرفا رجال هذا العصر بين ثناياهما .

وجاءت أكثر ألوان المقاومة عنادًا من أهل الريف^(١) المتعلقين بأهتهم المحلية الصغيرة الخاصة بهم ، وبتقاليدهم العتيقة التي يدعمها إيمانهم بالسحر . وكان جفاء طبيعهم الفطري عاملاً خطراً في محاولات تبشيرهم ، بل كان من العسير إقناعهم إلا إذا استثيرت عقولهم بأعمال عنف جريئة ضد معابدهم وأصنامهم أو أشجارهم المقدسة وبنائيعهم السحرية . وبعد أن انتشر الإيمان في المدن ، وجد أن عونه الأكبر في المناطق الريفية يكمن في تلك الأديرة التي أنشئت في مراكز تيسرها العمل المباشر النشط ، وفي الكثير من الأحوال فرضت المسيحية نفسها عن طريق التسرب اليومي البطيء المترتب على الصلات بين المدينة والقرى ، وفي بعض الحالات الأخرى ، اتسم انتشارها بأعمال مفاجئة مثل تبشير قرية بأكملها أو مجموعة قرى في يوم واحد ، وكانت في غالب الأمر تسير على أسلوب « الأبدال » ، أى تحول لصالحها من الأساطير والخرافات السائدة ، معتمدة على عبادة القديسين لديها ، تلك العبادة التي يسرت كثيراً من مهمتها التبشيرية : فتقيم تماثيل قديسيها محل الشخصيات الإلهية الصغيرة التي اعتادها الفلاحون وأحبوها حباً جماً لاعتقادهم بأنها تؤدي لهم العديد من الخدمات اليومية التي يطلبونها منها ، وهكذا بدت القرى وكأنها آخذة بأهداب المسيحية ؛ وتقدم العمل التبشيري فيها كثيراً في نهاية القرن الخامس .

(١) كلمة « باجانوس » اللاتينية تعنى أصلاً : « رجل الريف » . وقد أثبت الأدلة أن عداء أهل الريف للمسيحية كان السبب في تحول معنى كلمة « باجانوس » هذه من « رجل الريف » إلى « الوثني » . ويبدو أن المعنى الأخير للكلمة نشأ في النصف الأول من القرن الرابع وانتشر خلال النصف الثاني منه .

وعلى أى حال ، فقد كان من الممكن ، منذ البداية ، التنبؤ بما آلت إليه معركة العقائد التى ثارت فى الربع الأخير من القرن الرابع . والنجاح الدائب للإيمان المسيحى فى المدن الكبرى والأوساط الرسمية ، وتنظيم الكنيسة فى مواجهة الأشتات المتفرقة من أعدائها ، ثم - وعلى الأخص - ذلك الحماس الحى الذى حملته المسيحية بين طياتها والديانات الوثنية القديمة تسير مندفعة فى طريق الفناء ، كل ذلك لم يكن سوى مجموعة من الظواهر تعلن انتصار الدين المسيحى وتمهد له .